مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 281 - 295

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

مفهوم الثقافة من منظور مالك بن نبي

The concept of culture from the perspective of Malek Bennabi

ارفيس علي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)، socrates1971dz@gmail.com

تاريخ الاستلام: 15-06-2022 تاريخ القبول: 31-10-2022 تاريخ النشر: 05-05-2023

ملخص:

إن الهدف من البحث هو إبراز دور وأهمية الثقافة في فكر مالك بن نبي. وقد تم استخدام المنهج التحليلي، باعتباره الأنسب في دراسة وتحليل المشكلات، حيث يتميز هذا المنهج بدراسة المشكلة وتحليل جزئياتها بدقة واستنباط الأحكام منها. ومن نتائج البحث أن مشكلة الثقافة هي من أبرز المشكلات من منظور مالك بن نبي باعتبارها المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته، والمحيط الذي يعكس حضارة معينة. وهي عنده نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة. بالإضافة إلى أن تحقيق مشروع الثقافة عند مالك بن نبي يكون من خلال الأخلاق وهذا لتكوين الصلات الاجتماعية، والجمال لتكوين الذوق العام، والمنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام، وأخيرا التقنية وهي بمثابة وسيلة للفرد تكسبه عيشه، وتساهم في بناء مجده، وبالنسبة للمجتمع فهي وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه. ولم يقتصر مالك بن نبي في تحليله لمشكلات الحضارة على العالم الإسلامي فقط بل تعدت نظرته إلى العالم الأفروآسيوي وإلى فكرة كومنويلث إسلامي.

كلمات مفتاحية: الثقافة ، الأخلاق، الجمال، التقنية، الحضارة

Abstract :

The aim of the research is to highlight the role and importance of culture in the thinking of the owner of Bennabi. The analytical curriculum has been used as the most appropriate in the study and analysis of problems. This curriculum is characterized by studying the problem and thoroughly analysing its parts and elaborating the provisions thereof. One of the findins of the research is that the problem of culture is one of the most prominent from the perspective of the owner of Bennabi as the surroundings in which the individual forms his character and character, and the surroundings that reflect a particular civilization. It has more theory of behaviour than of knowledge. In addition, the realization of the cultural project of the owner of Bennabi is through morality and this to form social connections, beauty for the formation of public taste, practical logic for the identification of forms of public activity, and finally technical and it serves as a means for the individual to earn his living, and contributes to the building of his glory. In his analysis of the problems of civilization, Malek Bennabi went beyond the Afro-Asian world and the idea of an Islamic Commonwealth.

Keywords: Culture, Ethics, Beauty, Technology, Civilization

مقدمة:

في الحقيقة أن المجتمع الجزائري قد تعرض في حقبة معينة لفترة احتلال من فرنسا الاستعمارية، وهذا الاحتلال لم يقتصر على نهب خيرات و ثروات البلاد فحسب، بل عمل على تدمير الإنسان الجزائري من الداخل وطمس هويته، وذلك من خلال طمس المعالم العربية الإسلامية للجزائر، فقد شرع في تغيير الشوارع وأسمائها، وتهديم المنازل والأسواق القديمة وإحداث الساحات مكانها، وتحويل الدور والقصور والمساجد والمدارس والكتاتيب والزوايا إلى مؤسسات عمومية للجيش وكنائس ومخازن ومستشفيات. وعليه نشير إلى أن الاحتلال الفرنسي قد حاول: « بكل ما أوتي من قوة وحقد أن يقتلع الجزائر من جذورها التاريخية والحضارية، وأن يجعلها امتدادا طبيعيا لفرنسا ليس جغرافيا فقط بل تاريخيا وثقافيا واجتماعيا ودينيا وحضاريا، وجند لذلك كل جيوشه الثلاثة: العسكرية، والتبشيرية، والاستشراقية، وقد نجد في الجيش الواحد من يجيد الأدوار الثلاثة كلها» (الطيب، 2002، ص. 29). وبقدر ما كان للجزائر أعلامها في مقاومة جيوش الاحتلال وملاحقته، وأعلامها في النضال السياسي وفضح أكاذيبه، كان للجزائر أعلامها في المجال الفكري والثقافي أمثال المفكر مالك بن نبي، الذي تصدى لمشاريع الاحتلال الثقافية والفكرية، ولعل أبرز المشكلات التي عالجها ابن نبي هي مشكلة الثقافة باعتبارها المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته، والمحيط الذي يعكس حضارة معينة. ونظرا لأهمية ودور الثقافة في حياة المجتمعات، فهو قد تطرق لدراستها في بعض مؤلفاته منها: "مشكلة الثقافة" و"شروط النهضة " و" تأملات " و"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" و"القضايا الكبرى" و"من أجل التغيير". والهدف من البحث هو إبراز دور وأهمية الثقافة في فكر مالك بن نبي، وذلك من خلال التطرق إلى العناصر الجوهرية اللازمة للثقافة وهي: عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية، وعنصر الجمال لتكوين الذوق العام، والمنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام، وأخيرا التقنية وهي بمثابة وسيلة للفرد تكسبه عيشه، وتساهم في بناء مجده، وبالنسبة للمجتمع فهي وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه. وقد استخدمت المنهج التحليلي، باعتباره الأنسب في دراسة وتحليل المشكلات، حيث يتميز هذا المنهج بدراسة المشكلة وتحليل جزئياتها بدقة واستنباط الأحكام منها.

ولمعرفة المشروع الثقافي في فكر مالك بن نبي، حاولت أن أجيب على الإشكالية الرئيسية التالية: **ما هو مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي ؟ وما هي مقوماتها في فكره ؟ وكيف نظر مالك بن نبي لقضية تعايش الثقافات ؟**

وتندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسية تساؤلات فرعية:

- ما ذا يقصد مالك بن نبي بفكرة التوجيه عموما وتوجيه الثقافة خصوصا؟
- وما هي العناصر الجوهرية المُكوّنة للثقافة في نظره ؟
- ولماذا تخلى عن فكرة الأفروآسيوية والدعوة إلى فكرة كومنويلث إسلامي ؟

1. مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي:

يرى ابن نبي أن للحضارة ثلاثة عناصر أساسية تتركب منها، ولا يمكن الاستغناء عن أحد دون الآخر، فالحضارة عنده هي: إنسان + تراب + وقت. والإنسان هو أهم هذه العناصر على الإطلاق، باعتباره هو الذي ينتج الحضارة بالتغيير والحركة، ولا يغير الإنسان التاريخ إلا إذا غيّر نفسه: «...وإنها لشرعة السماء: غيّر نفسك تُغيّر التاريخ» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص. 32)

والإنسان الذي يقصده مالك بن نبي ليس هو الإنسان الفرد المكوِّن للنوع البشري، بل هو الإنسان الاجتماعي وجهده الجماعي المنتج للحضارة. فالحضارة ليست منتوج فرد بل منتوج جماعي، لأن :«الشخص بذاته ليس مجرد فرد يكوِّن النوع، وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة، وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة، إذ يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء» (نبي، ميلاد مجتمع، 1986، ص. 29)

ويؤكد ابن نبي أن الإنسان يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات رئيسية هي الفكر والعمل والمال، وبالتالي يجب أن نبحث في توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال، والتوجيه عنده هو: «قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف، فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها، حين زاحمتها قوى أخرى، فالتوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل في أحسن ظروفه الزمنية» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.78)

ومن خلال هذه المؤثرات الثلاث، يعطي ابن نبي الأولوية والأهمية للثقافة باعتبارها المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته، والمحيط الذي يعكس حضارة معينة، وبالتالي تصبح الثقافة عنده نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة. وقد عرّف ابن نبي الثقافة بأنها: «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح

لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه» (نبي، مشكلة الثقافة، 2000، ص.74)

2. مقومات الثقافة عند مالك بن نبي:

في مجال توجيه الثقافة يؤكد مالك بن نبي على العناصر الجوهرية اللازمة للثقافة وهي: عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية، وعنصر الجمال لتكوين الذوق العام، والمنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام، وأخيرا التقنية أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون.

1.2. الأخلاق:

وهي تعني عند ابن نبي قوة التماسك اللازمة للأفراد، هذه القوة التي استطاعت بناء المجتمع الإسلامي الأول، والأخلاق دورها في المجتمع هي: « ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:63]، ومن العجب أن نجد اتفاقا له مغزاه ودلالته بين ما توحي به هذه الآية، وبين معنى كلمة "دين" (Religion) في أصلها اللاتيني فهي تعني هنالك "الربط والجمع"» . (نبي، شروط النهضة، 1986، ص. 88)

ويوضح ابن نبي أن للدين دورا كبيرا في بناء الإنسان، حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة، وأكد ذلك في قوله:« ... وهكذا يظهر لنا من وجهة نظر علم النفس، أن العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف (أنا) الفرد، ثم توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه (الأنا) داخل المجتمع تبعا للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ ». (نبي، ميلاد مجتمع، 1986، ص. 74)

فالدين يعطي قوة للإنسان فوق قوته، فيتغلب على المصاعب ويتحوّل إيمانه إلى عاطفة قوية جارفة: « ... والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، وحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود، لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض». (نبي، وجهة العالم الإسلامي، 2002، ص.31)

وهذه الروح التي تحررت من قيود الغرائز، بعدما تمت سيطرة العقيدة عليها، هي التي ظهرت عند الصحابي بلال بن رباح، وجعلته يصبر ويتحدى قريشا وهو يردد "أحد أحد"، كما أنها هي

نفسها تتحدث بصوت تلك "المرأة الزانية" التي أقبلت إلى الرسول، لتعلن عن خطيئتها وتطلب إقامة حد الزنا عليها. (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.68)

ولهذا يؤكد مالك بن نبي أن للدين أهمية كبرى في تطور المجتمعات وذلك من خلال بناء الإنسان: «...فالعنصر الديني عامة يتدخل مباشرة في الشخصية التي تكون (الأنا) الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه (الأنا)، ولما كانت هذه الطاقة الحيوية المنظمة تتحول إلى نشاط اجتماعي لدى الفرد، وكان هذا النشاط لدى الفرد سببا في وجود النشاط المشترك للمجتمع خلال التاريخ» (نبي، ميلاد مجتمع، 1986، ص.72)

ويشير ابن نبي إلى أن الدين هو بمثابة الطاقة التي تجعل المجتمع يتمكن من مواصلة السير من المكان الذي طوقته فيه الأخطاء بلوغا إلى مأمنه: «... فإذا أراد المجتمع الإسلامي أن يبقى على وجه الخريطة، عليه أن ينقذ نفسه بدينه، لأن الدين هو الوسيلة الوحيدة لديه ليسير إلى مأمنه، بل والمأمن بالنسبة إلى سائر المجتمعات» (نبي، مجالس دمشق، 2006، ص.61)

كما أكد مالك بن نبي على ضرورة إرجاع فعالية الدين في الحياة: «... فالمسألة لا تتمثل في تلقين أو في إعادة تلقين المسلم عقيدته، ولكنها تتمثل في إعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها في الحياة، إلا أن المصلحين قد أغفلوا وضع هذه المشكلة». (نبي، القضايا الكبرى، 2000، ص.123)

وعليه فالمشكلة ليست في أن نُعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نعيد لهذه العقيدة فاعليتها في الحياة: «إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة» (نبي، وجهة العالم الإسلامي، 2002، ص.54)

ومن هذا المنظور يجب على المسلمين الشعور بالمسؤولية اتجاه مصير هذه الأمة، فلا يكون اهتمامهم هو التقرب إلى الله فقط، بل الاهتمام كذلك بأمر المسلمين:« يجب ألا ينصب الاهتمام فقط على التقرب إلى الله بالعبادة الفردية فحسب، بل العمل والاهتمام الاجتماعي بما يقربنا إلى الله أفرادا، وهذا بالأساس واجبنا أن نتقرب إليه باهتمام في إصلاح وضع المسلمين، وبما يخدم صلاح الأمة الإسلامية» (نبي، مجالس دمشق، 2006، ص.ص. 139، 140)

ومما سبق ذكره يتضح: «أنه ليس المطلوب الدفاع عن أصالة الإسلام، بل مجرد إعادة فعاليته إليه بتحريكهم قواه الإنتاجية» (نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2002، ص.118).

2.2. الجمال:

الجمال حسب مالك بن نبي له أهمية اجتماعية، وهذا إذا ما اعتبرناه المنبع الذي تصدر منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع، لأنه: «لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه.(نبي، شروط النهضة، 1986، ص.91) لأن أزهد الأعمال له صلة كبرى بالجمال، فالشيء الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال أو تنضح بالقبح: «...ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان، وفي عمله، وفي السياسة التي يرسمها لنفسه، بل حتى في الحقيبة التي يحمل فيها ملابس سفره» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.92)

ويشير ابن نبي أننا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال، ولو أنه كان موجوداً في ثقافتنا لسخرناه إذن لحل مشكلات جزئية، تكوّن في مجموعها جانباً من حياة الإنسان. ويعتبر أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل: «إن الجمال هو الإطار الذي تتكوّن فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا، وأن نتمثل في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا مسحة الجمال نفسها، التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرح» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص. 94)

ويضيف على أنه يجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات والروائح والألوان، كما يثيرنا منظر مسرحي سيء الأداء، وذلك لكون: أن «الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذي ندين لهم بنفس الاحترام» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.94)

وأكد ابن نبي على وجود صلة بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال، تُكوّن في الواقع : «علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية كبيرة إذ أنها تُحدّد طابع الثقافة كله، واتجاه الحضارة حينما تضع هذا الطابع الخاص على أسلوب الحياة في المجتمع، وعلى سلوك الأفراد فيه» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.101)

وقد وجد ابن نبي أن اتجاه الحضارة يتحدد في إطار العلاقة بين المبدأ الأخلاقي والتوجيه الجمالي، ويصوغ هذه العلاقة في صورة جبرية: مبدأ أخلاقي + ذوق جمال = اتجاه حضارة : «...فالحياة في مجتمع معين قبل أن تتأثر بالفنون والصناعات، أي بالجانب المادي أو الاقتصادي من الحضارة، تتخذ لها اتجاهاً عاماً ولوناً شاملاً» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.101)

وأشار إلى أن هناك نموذجين من المجتمع، نموذجاً يقوم فيه النشاط أساساً على الذوق الجمالي، ونموذجاً يقوم فيه النشاط على المبادئ الأخلاقية، وهذا الاختلاف الأساسي في نظر ابن نبي: «ليس مجرد اختلاف شكلي، إنه يؤدي إلى نتائج تاريخية ذات أهمية كبيرة، فالنموذجان اللذان يختلفان هكذا بسبب اختلافهما في ترتيب عناصر الثقافة لا يتطوران في اتجاه واحد، بل إنه في بعض الظروف تنشأ بينهما تناقضات جذرية» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.102)

وللبرهنة على هذه الفكرة، أعطى ابن نبي دليلا من حضارتين مختلفتين: فالمجتمع الغربي قد مارس من بين فنونه، فن التصوير، وخاصة تصوير المرأة العارية، وذلك بسبب الدافع الجمالي، بينما لا نرى الفن الإسلامي قد خلف آثاراً في التصوير، كالذي نشاهده في متاحف الحضارة الغربية، لأن الرادع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يطلق العنان للفنان أن يعبر عن كل ألوان الجمال وعلى الخصوص المرأة العارية، كما أن تطور الملابس في المجتمع الغربي، قد انطلق من نقطة معينة، هو إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهره، بينما نجد أن تطور الملابس في المجتمع الإسلامي قد اتخذ اتجاهاً مخالفاً تماماً، إذ هو يهدف أساساً إلى أن يخفي جمال المرأة في الشارع تغليباً للمبدأ الأخلاقي. (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.102)

ويعتقد ابن نبي أن: «كل ثقافة تتضمن عنصر الجمال، وعنصر الحقيقة، غير أن عبقرية أحدهما تجعل محورها الجمال، بينما الأخرى تفضل أن يكون محورها الحقيقة» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.102)

وهذا الاختلاف في نظر ابن نبي يعود إلى الجذور التاريخية لكل حضارة: «فالثقافة الغربية قد ورثت ذوق الجمال من التراث اليوناني الروماني، أما الثقافة الإسلامية فقد ورثت الشغف بالحقيقة من بين ميزات الفكر السامي، فكان رواد الأولى وحملة لوائها، زعماء الفن من فيدياس إلى مخائيل أنجلو، بينما قادة الأخرى أنبياء من إبراهيم إلى محمد» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.103) وعليه تصبح كل ثقافة حسب ابن نبي تتضمن العلاقة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي تكون دليلا على عبقرية مجتمع معين، وهي لا تطبع إنتاجه الأدبي بطابع خاص فحسب، وإنما تُحدد اتجاهه في التاريخ أيضا: «...إننا نستطيع مثلا أن نعتبر الاستعمار" كظاهرة ثقافية " يدل على أن الثقافة الغربية حددت علاقة " مبدأ أخلاقي - ذوق جمالي " بصفة معينة، وذلك بأن قدمت العنصر الثاني على الأول في ترتيب القيم، فأثر هذا الترتيب في علاقة الإنسان الأوروبي بالإنسانية» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص. 103)

وهو بهذا يؤكد أن كل ثقافة مسيطرة هي في أساسها ثقافة تكون فيها الأولوية للقيم الجمالية على حساب القيم الأخلاقية: « ...فنرى كيف أن ثقافة تمنح الأولوية لذوق الجمال تغذي حضارة تنتهي إلى فضيحة حمراء، وكيف أن الثقافة التي تمنح الأولوية للمبدأ الأخلاقي تكون حضارة مآلها التحجر والجمود، وتنتهي إلى فضيحة صامتة سوداء، تتيه في مجال تصوف متقهقر، يقود جنونه مشايخ تصوف» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص. 104)

3.2. المنطق العملي:

يعني به مالك بن نبي كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، ويرى أننا: «أحوج ما نكون إلى هذا المنطق العملي في حياتنا، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فشيء يكاد يكون معدوما». (نبي، شروط النهضة، 1986، ص. 95) لهذا ما ينقص الإنسان المسلم حسب ابن نبي ليس منطق الفكرة أو العقل المجرد، ولكن ينقصه منطق العمل والحركة.

ومن خلال هذا المنطق يؤكد على قضية الفاعلية باعتبارها تندرج ضمن منظومته الفكرية العامة، التي حددها في مشكلة الحضارة بأبعادها السياسة والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، فمشكلة الحضارة عنده قضية لا تتجزأ، وأي تجزئة لها يقود حتما إلى طرح المشكلات طرحا خطأً، ومن ثمّ يؤدي إلى تحديد وسائل خاطئة للعلاج.

ويؤكد مالك بن نبي على أن اللافعالية ليست ناجمة عن ما يتعلمه المرء في المدرسة ، وإنما هي ناجمة عن البيئة، أي مرتبطة بالوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد، حيث يقول:« ...فالفرد لا يدين بصفاته الاجتماعية لتشكيله المدرسي، ولكن لشروط خاصة بوسطه، أما من حيث سلوكنا السلبي إزاء هذه المشكلة أو تلك، فإن جميع أسباب اللافعالية الخاصة بوسطنا هي التي تجعل منا أشخاصا فاقدين للفعالية» (نبي، القضايا الكبرى، 2000، ص.77)

ولذلك يجب أن تكون الجهود المبذولة في طلب العلم، مرتبطة بغايات عملية، فالفكرة التي لا تترجم إلى عمل، ولا تهدف إلى تحقيق آثار ونتائج عملية، تظل فكرة جوفاء لا معنى لها: «...فالعلم الذي لا يترجمه عمل، يظل ترفا لا مكان له، في وطن ما يزال فقيرا في الوسائل والأطر. ففي هذه المرحلة بالذات لا بد للاهتمامات أن تتركز في البلاد الإسلامية حول مفهوم الفعالية، وعلى الخصوص في مجال التسيير ووسائله: الأداة والدولة» (نبي، بين الرشاد والتيه، 2002، ص.39)

ولهذا يرفض ابن نبي كل الأفكار المنفصلة عن الواقع العملي، ويؤكد على أن الفكر لا بد أن يكون مرتبطا بالعمل، لأن نجاح الأفكار وصحتها مرتبط بما تحققه من نتائج وآثار عملية على أرض الواقع: « ... ولا بد لي هنا أن أدعو شبابنا المثقف لأن تكون كل محاولة في أذهانهم تهدف إلى تطبيق عملي» (نبي، تأملات، 2002، ص.52) ويوضح إلى أن في تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وفي سكونه سكون المجتمع والتاريخ: «على أنني حينما أرى في حركة التاريخ حركة الإنسان وفي ركوده، فإن ذلك يضعني أمام مشكلة تتصنف تحت عنوان الفعالية فعالية الإنسان في التاريخ» (نبي، تأملات، 2002، ص.129)

كما أنه يشير إلى ما يسميه بتوجيه العمل والذي يعني به سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد: «...فإعطاء ثلاثة حروف من الأبجدية عمل، وتقبل هذه الحروف عمل، وإزالة أذى عن الطريق عمل، وإسداء نصح عن النظافة أو الجمال عمل، وغرس شجرة عمل، واستغلال أوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عمل» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.107)

فتوجيه العمل هو تأليف كل هذه الجهود لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة، كما يجب أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا، ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك، لأن هذا التوجيه حين يتحد مع توجيه الثقافة وتوجيه رأس المال يفتح مجالات جديدة للعمل. (نبي، شروط النهضة، 1986، ص 108) ولهذا رأى ابن نبي أن العمل هو وحده الذي يخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي: «...فعندما كان المسلمون الأول يشيدون مسجدهم الأول بالمدينة، كان هذا أول ساحة للعمل صنعت فيه الحضارة الإسلامية» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.107)

4.2. التقنية:

أو ما يطلق عليها ابن خلدون بالصناعة، ويُعرّف هذا الأخير الصناعة بأنها : « ملكة في أمر عملي فكري، و بكونه عملياً هو جسماني محسوس، والأحوال الجسمانية المحسوسة، نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة، ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر، وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم، يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته» (خلدون، 2007، ص.404) وهي بالنسبة لابن نبي بمثابة وسيلة للفرد تكسبه عيشه، وتساهم في بناء مجده، وبالنسبة للمجتمع فهي وسيلة للمحافظة على كيانه

واستمرار نموه، ويؤكد مالك بن نبي على ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني، ليحل المشكلة الخطيرة للتربية المهنية نظريا وعمليا تبعا لحاجات البلاد (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.97).

وفي مجال التقنية يعطي أهمية كبيرة لعنصر التراب ولكن لا يعني به التراب المنظور له من حيث خصائصه وطبيعته، بل يعني به نظرتنا له من حيث القيمة الاجتماعية، وقيمته الاجتماعية مستمدة من قيمة مالكيه وقيمة أمته وحضارتها (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.131). لأن تشكيل وبناء الحضارة، يجعل من التراب الذي يُقدّم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط:« مجالا مجهزا مكيفا تكييفا فنيا يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج (نبي، وجهة العالم الإسلامي، 2002، ص.32).

فالتراب بالنسبة لمالكه هو مورد وثروة حضارية، وكيفية استغلاله هو العامل الحاسم في بناء الحضارة، إذن قيمة التراب عند ابن نبي هي جزء لا يتجزأ من قيمة مالكه، فإن كان مالكه متحضرا، كانت أرضه منتجة وقيمته ثمينة، وإن كان مالكه عاجزا، كانت أرضه فقرا لا قيمة لها، فالأرض التي لا تنتج، تتحوّل من أرض خصبة إلى فلاة، ثم في مرحلة لاحقة تتحول إلى صحراء، تؤدي حتما إلى تحول اقتصادي، فمن حياة زراعية تتحول إلى حياة رعي، ومن رعي إلى لا شيء (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.133). ويستدل ابن نبي على أهمية استغلال الأرض والتراب، بما كان يحدث في بلده الجزائر من عملية التصحر، التي كانت تزحف من الجنوب إلى الشمال، ويرى في ذلك ليس مشكلة فقط، بل مأساة دامية: « إذ تموت الأرض الخضراء عن أهلها، وتتركهم يتامى بين يدي الصحراء المقفرة» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.132). كما يستدل على ما حدث بمدينته تبسة التي نشأ بها، والتي كانت مدينة كبيرة يبلغ عدد سكانها مائة وثمانين ألف ساكن، فانخفض العدد إلى أربعين ألف ساكن في مدة عشر سنوات فقط، وكذا بالنسبة للماشية، التي كانت مورد الإقليم الوحيد، نجدها اليوم على وجه الانقراض (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.134).

ويضرب ابن نبي مثالا على ما قام به الفرنسيون في جنوب غرب بلادهم، التي كانت الرمال تهدد مصالح أهلها وصحتهم، فهب سكانها لغرس الأشجار خلال مدة عشرين سنة، فسدّوا الطريق على الرمال ما بين مدينتي بوردو وبياريتز، فتحولت المنطقة إلى أول منتج في العالم لزيت التربنتين، وملجأ صحيا للمرضى من جميع أنحاء العالم، وليس فرنسا وحدها حققت ذلك، بل كذلك روسيا وما قامت به في هذا الميدان، وهولندا هي الأخرى يعتبر أكثر من ثلث أراضيها مصنوعا بأيدي أهلها (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.135). كما أنه من خلال التقنية قد أشار إلى دور المال، حيث

يفرق بين مصطلحي الثروة ورأس المال، فالأول يستخدمه الفرد في ميدانه الخاص مثل عقاره أو قطيعه أو ورشته، ويسعى لسدّ حاجياته فقط، بينما الثاني ينمو ويتحرك في محيط أكبر من محيط الفرد، فالثروة لا تسعى لغايتها كقوة مالية مستقلة، بينما رأس المال ينفصل عن صاحبه، ويتسع مجاله بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد وبالتالي: «يخلق حركة ونشاطا، ويوظف الأيدي والعقول أينما حل وحيثما ارتحل (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.111).

فالثروة مال ساكن ورأس المال مال متحرك، والمطلوب من المسلمين توجيه المال وترشيده: «...فالقضية ليست في تكديس الثروة، ولكن في تحريك المال وتنشيطه، بتوجيه أموال الأمة البسيطة، إلى رأس مال متحرك ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد» (نبي، شروط النهضة، 1986، ص.ص.112، 113). وقد نتج عن عدم توجيه المال أن: «زاد أغنياء المسلمين على فقرائهم في العطل، على الرغم مما يملكون من ثروات، وكثير من أولئك الأغنياء لا يهتمون برعاية طفل مسلم لتربيته تربية عملية أو فنية» (نبي، وجهة العالم الإسلامي، 2002، ص.90) ومع هذه الدعوة إلى توجيه رأس المال، إلاّ أن ابن نبي يحذر الدول من اختيار أسلوب التنمية الرأسمالي: «لأنها تكون كما لو قررت مبدئيا أن تضع عملها من أجل النهوض الاقتصادي تحت رحمة الآخرين، في سجن المؤسسات المالية العالمية» (نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، 2000، ص.70).

3. تعايش الثقافات من منظور مالك بن نبي:

لم يقتصر مالك بن نبي في تحليله لمشكلات الحضارة على العالم الإسلامي فقط، بل تعدت نظرته إلى العالم الأفروآسيوي، وكان ذلك من خلال كتابه:" فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ "، وهذا الكتاب ألفه مالك بن نبي في فرنسا وحمله معه إلى مصر، وهو مفعم بالآمال التي سيحققها مؤتمر (باندونغ). حيث كان يعتقد أن أهمية هذا المؤتمر (الأفروآسيوي) تكمن في أنّ أحد أهدافه الأساسية: « إيجاد منطقة سلام على الخريطة، لتكون للإنسانية في حالة أي طوفان ذري سفينة نوح الجديدة، وملجأها الأخير. و كان من نتائجه أن أنشأ في مواجهة (محور القوة) الممتد من واشنطن إلى موسكو، محورا ذا أساس أخلاقي هو (محور عدم العنف) الممتد من طنجة إلى جاكرتا» (نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، 2001، ص.28).

ويعتبر أن النصر السياسي الذي أحرزه غاندي هو بمثابة لحظة هامة في تاريخ الهند، ولكن: «انتصاره الأخلاقي يعد أيضا أكثر أهمية، فهو يسجل اللحظة المؤثرة التي أصبح فيها مبدأ (عدم

العنف) قوة سياسية عالمية، وبفضل هذه القوة دخل (المستعمر) إلى المسرح الدولي» (نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، 2001، ص. 58).

وذهب ابن نبي إلى أن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو في النهاية تفكير في مشكلة الحضارة، ومشكلة الإنسان الأفروآسيوي هي في جوهرها مشكلة حضارة، وهذا يعني أن: «يحقق هذا الأفروآسيوي من طنجة إلى جاكرتا وضعا عاما متحررا من العوامل السلبية التي فرضها الاستعمار والقابلية للاستعمار على حياته في هذه المنطقة» (نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، 2001، ص.82).

والفكرة الأفروآسيوية تدين لطبيعتها كفكرة يملها الإسلام والهندوسية بتركيب ثنائي، وهذه: «الخاصية تحول بينها وبين أن تتبلور في كتلة صالحة لأن تستخدم في عمل من أعمال السيطرة، بل ستظل على العكس من ذلك تسمح بتدخل جميع تيارات الفكر، وتحمل رسالة الخلاص الغني بجميع العناصر الخلاّقة، تلك العناصر التي يمكن أن تضعها فيها جميع التيارات المثرية في التجربة الإنسانية كلها» (نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، 2001، ص.135).

ورأى أن فكرة الأفروآسيوية وهبت للعالم الخلاص، فهي: «بإنشائها المنطقة الحرام بين الكتلتين في صورة سياسية حيادية، كوّنت في الحقيقة فراغا، لم تعد الحرب الباردة تجد فيه قوة يحوّلها إلى حرب ساخنة، وهي بعملها هذا قد أتاحت لفكرة التعايش أن تأتي في وقتها» (نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، 2001، ص.ص.136، 137).

ومحور العالم الإسلامي من طنجة إلى جاكرتا، يتفق بالتحديد مع محور العالم الأفروآسيوي، وبسبب هذا الوضع الخاص، رأى ابن نبي أن الإسلام يتمتع بوضع: «القاسم المشترك مع جميع الثقافات التي تؤلف الخريطة الروحية في العالم، فهو في مركزه في البحر الأبيض يقع في قلب عالم الكتاب المقدس، الذي يتقاسم معه رسالة إبراهيم، وهو في مراكزه الآسيوية يقع في قلب عالم الهاجافادجيتا وفكرة بوذا وحكمة كونفوشيوس، وهو في إفريقيا الوسطى على صلات مع النفس الإنسانية العذراء المنزهة عن أي طابع تعليمي في كامل براءتها البدائية» (نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، 2001، ص.ص. 226، 227).

والمؤتمر الإسلامي لا بد أن ينظر إلى المشكلة من ثلاث زوايا، مع اهتمامه منطقيا بعلاقاتها الداخلية أولا، وبعلاقاتها مع فكرة الأفروآسيوية ثانيا، ومع فكرة العالمية ثالثا. فالاتصال الروحي في تركيب فكرة الأفروآسيوية لا يمكن أن يتحقق إلا باتصال الفكر الإسلامي بالفكرة الهندوسية بواسطة الحوار والمواجهة. ولهذا يجب حسب ابن نبي على القادة المسلمين أن: «يفتحوا عقولهم

أكثر للقيم الثقافية في الهند وفي العالم، وما كان لهم أن يعرفوا نصيبهم من العبقرية في الفكر الأفروآسيوي إذا هم لم يعرفوا ويقدروا نصيب الآخرين» (نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، 2001، ص.ص. 246، 247).

وقد رأى أن العالم الأفرو آسيوي هو بمثابة:« مجال إشعاع الفكر الإسلامي وفكرة اللاعنف أي مجال إشعاع حضارتين: الحضارة الإسلامية والحضارة الهندوكية، الحضارتان اللتان تختزنان أكبر وذخيرة روحية للإنسانية اليوم» (نبي، في مهب المعركة، 2002، ص.72).

ومن مبدأ السلام العالمي واللاعنف انتقل مالك بن نبي إلى فكرة توحيد الإنسانية والمجتمع العالمي: «لأنه يرى أن مصير الإنسانية إلى توحيدها وإلى وحدة ثقافتها» (نبي، في مهب المعركة، 2002، ص.146).

وما محكمة العدل في لاهاي والقانون الدولي والقانون البحري، إلا مظاهر لذلك : «الاتجاه العام الذي لا يفتأ يمهد الطريق لتوحيد العالم، وهناك مؤتمرات مختلفة للتنظيم العلمي والفني والاتحادات النقابية العالمية، كاتحاد البريد العالمي، وهي خير شاهد على حاجة الشعوب إلى تنظيم حياتها على أساس من التعاون والعمل المشترك» (نبي، وجهة العالم الإسلامي، 2002، ص.166).

وكان ابن نبي متحمسا في الحقيقة لفكرة (الأفرو- آسيوية) ولمؤتمر باندونغ عام 1955، ولكنه رأى بعد ذلك أن أي محاولة توحيد اقتصادي داخل تجمع ليست عناصره منسجمة وأي محاولة لتشييد وحدة لا تجدي شيئا إن لم يكن عناصر هذه الوحدة مرتبطة مسبقا بروابط صهرها التاريخ، ولهذا دعا إلى فكرة كومنويلث إسلامي: «... ومن هنا فإن ضرورة تكتل العالم الإسلامي تبدو أول ما تبدو كضرورة نفسية، أي كوسيلة تخفف من تهويل القضية في الضمير الإسلامي، وبالتالي وسيلة فعالة للحد من بعض النزعات المفرقة، التي يمكنها دفع العالم الإسلامي إلى ثورة تأتيه من الخارج» (نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، 2000، ص.13).

خاتمة:

في الأخير يعتبر مالك بن نبي أن الثقافة هي بمثابة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، ويؤكد على أن توجيه الثقافة يكون من خلال العناصر الجوهرية اللازمة للثقافة وهي: الأخلاق، الجمال، المنطق العملي، وأخيرا التقنية أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون.

ومن خلال دراستنا لمفهوم الثقافة من منظور مالك بن نبي حاولنا أن نستخلص جملة من النتائج تتمثل في:

- تعتبر مشكلة الثقافة من أبرز المشكلات التي عالجها مالك بن نبي في بعض كتبه باعتبارها المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته، والمحيط الذي يعكس حضارة معينة.
- . الثقافة عند مالك بن نبي ليست أفكارًا أو معارفا فحسب، ولكنها تضم أيضًا أسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحية، كما تخص السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى. وبالتالي فهي عنده نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة.
- تحقيق مشروع الثقافة عند مالك بن نبي هو من خلال إيجاد الصلة بين الأفراد، وهذه الصلة تحدث طبقًا لمنهج تربوي يقوم على الأخلاق. بالإضافة لعنصر الجمال الذي يحدد أسلوب الحياة في المجتمع. وكذلك بالمنطق العملي باعتبار أن الفكرة التي لا تهدف إلى تحقيق آثار ونتائج عملية، تظل فكرة جوفاء لا معنى لها، وأسلوب حياة المجتمع وفاعليته يقومان حسب ابن نبي في جانبهما الأكبر على عالم الأشياء الذي هو نتيجة عوامل فنية صناعية مختلفة.
- لم يقتصر مالك بن نبي في تحليله لمشكلات الحضارة على العالم الإسلامي فقط بل تعدت نظرته إلى العالم الأفروآسيوي، حيث كان في البداية متحمسا لفكرة (الأفرو- آسيوية)، ولكنه رأى بعد ذلك أن أي محاولة توحيد اقتصادي داخل تجمع ليست عناصره منسجمة، لا تجدي شيئا إن لم يكن عناصر هذه الوحدة مرتبطة مسبقا بروابط صهرها التاريخ، ولهذا دعا إلى فكرة كومنويلث إسلامي.

وما نقترحه من خلال هذه الدراسة هو حث الأمة على الاهتمام بمشروع مالك بن نبي الحضاري، والالتفات إليه، والعمل على تجسيد مشروعه على أرض الواقع، إن أرادت الخروج من الانحطاط والتخلف الحضاري.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بن خلدون عبدالرحمان، (2007)، المقدمة، دار الفكر ، بيروت.
2. بن ابراهيم الطيب، (2002)، مواقف وأفكار مشتركة بين مالك بن نبي وابن خلدون، دار مدني، الجزائر.
3. بن نبي مالك، (1986)، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق.
4. بن نبي مالك، (1986)، ميلاد مجتمع، دار الفكر، دمشق.
5. بن نبي مالك، (2000)، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق.
6. بن نبي مالك، (2000)، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق.
7. بن نبي مالك ، (2000)، فكرة كومنويلث إسلامي، دار الفكر، دمشق.
8. بن نبي مالك، (2000)، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق.
9. بن نبي مالك،(2001)، فكرة الإفريقية الأسيوية، دار الفكر، دمشق.
10. بن نبي مالك، (2002)، بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق.
11. بن نبي مالك، (2002)، تأملات، دار الفكر، دمشق.
12. بن نبي مالك، (2002)، في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق.
13. بن نبي مالك، (2002)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق.
14. بن نبي مالك، (2002)، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق.
15. بن نبي مالك، (2006)،مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق.